المحاضرة الثالثة

إيران في العصر الأموي خراسان نموذجاً

أولاً: التعريف بخراسان وأصل التسمية

ضمت خراسان أراضي من أفغانستان، تاجيكستان، تركمنستان، وأزبكستان اليوم ولذا لقبت بخراسان العظيمة، وتعرف بكونها مهداً للغة الفارسية وتمدن الشرق في إيران كما تستأثر بأهمية خارقة العادة من وجهة نظر سياسية واقتصادية في تشكيلات البلاد، فقد انتفضت منها أول ثورة للاستقلال من سلطة الخلفاء الأمويين.

سمّيت خراسان في الأدب الفارسي على أنها أرض المشرق وهي تتألف من كلمتين (خور) يعني الشمس و(آسان) يعني مطلع، وعلى هذا فمعنى خراسان (مكان طلوع الشمس)، ولقد قسّم الجغرافيون القدامى إيران إلى ثمانية أقاليم واعتبروا خراسان أكبرها مساحةً وأكثرها سكاناً وبركةً ووصفوها بأنها أهم الأقاليم، كما يتحدث التاريخ بأن خراسان فتحت في زمان الخلفاء ثم حكمها بعد ذلك الأمويون، أما أبو مسلم الذي ذكر اسمه في تاريخ خراسان فقد ذكر التاريخ أنه سيطر علي إقليم خراسان بعد ثورة في عام ١٢٩هـ.

ثانياً: جوانب تأثير القبائل العربية في خراسان وبلاد ما وراء النهر في العصر الأموي

كانت القبائل العربية في خُراسان وبلاد ما وراء النهر هي صاحبة الحركة الحيّة الفعّالة في التاريخ الخُراساني أبّان العصر الأموي فمنها المستوطنون الجدد ومنها القادة والولاة والأمراء والقضاة والعلماء والشعراء ومنها أصحاب الثورات والفتن. وذلك من خلال جوانب عدة منها:

١. التأثر والتأثير: حدث التأثير المتبادل بين القبائل العربية وسكان البلاد الأصليين غير إن العرب لم يلغوا انتماءهم بل اتسع وتنوَّع فانتموا إلى الأصول العربية الكبرى عندما ابتعدوا عن مواطنهم الأولى، كما انتموا إلى الخُطط التي عرفوا بها مع انتمائهم إلى المدن والقرى التي يعيشون فيها في خُراسان وبلاد ما وراء النهر وكل ذلك في ظل الإسلام وفي دائرة فلكه، كما أنَّ سكان البلاد الأصليين لم يلغوا انتماءهم إلى أمصارهم وأقاليمهم لكنهم عرفوا مع ذلك نظام المعاهدة التي أصبحوا بموجبها منتمين إلى القبائل العربية حلفاً، بدون تمايز طبقي يفرق بين المحالف والحليف لأن الإسلام يمنع ذلك ويرفضه، بعكس نظام حلف العرب الجاهلي الذي يقر الطبقية بين المتحالفين.

٢. حقوق الموالي: انعكست آثار الاحتكاك بين العنصرين العربي والعجمي على جوانب عديدة في حياة خُراسان وبلاد ما وراء النهر، فالعرب لم يحرموا الموالي من المناصب، ولا الموالي منعوا من العطاء، أما اللَّبس الحاصل بشأن الضرائب فهو نتيجة للخلط بين مفهومي الخراج والجزية وعدم التمييز بينهما أو هو مغالطة مقصودة للتأكيد على ظلم العرب للموالي مع تجاهل أن العجمي (المولى) قد ظل مساوياً للعربي في المنزلة والعطاء والرزق، وأنَّ من يحاول أنْ يحرم الموالي من

عطائهم يكون عرضة للعقوبة والجزاء، فالأرض الخراجية تظل خراجية سواءً كان صاحبها مسلماً أو كافراً عربياً أو عجمياً، أمَّا الجزية فلم يُعرف في تاريخ خُراسان وبلاد ما وراء النهر في عصر بني أمية أنها أخذت ممن أسلم وحين حاول أشرس السلمي فرضها بمشورة من بعض العجم أنكرها العرب والعجم على حد سواء.

٣. التمايز الطبقي: لا يوجد سند تاريخي لما يقال عن وجود تمايز طبقي رفع العرب بموجبه أنفسهم عن الموالي، فلم تشر المصادر التاريخية الموثوقة إلى ذلك، وليس ما ورد في بعض الحوادث الفردية مما يصلح لأن يكون حكماً عاماً تبُنى عليه الأسس العلمية للبحوث، كما أن مصادر الأدب وأخبار الظرفاء والشعراء التي أوحت بالتمايز وألحت في بيان الفارق الطبقي في مسألة المعاهدة لا يركن إليها في البحوث التاريخية فهي إمَّا قصص تعتمد الخيال أو تسلية تنزع إلى التشويق من خلال المبالغة والتهويل.

كما أنَّ أحكام بعض الباحثين قد أغفلت النفسية العربية البدوية حين مناقشة رفض العرب الأصهار إلى الموالي، ونسيت العادة التي تمليها أنفة العربي من الأصهار إلى بعض الأقوام حتى ولو كانوا من بني جنسه العرب، تلك الأنفة التي تتضح حينما يكون العربي قريباً من بداوته وتكاد تتلاشى حين يتحضر وتتشبع روحه بالإيمان، وغفلت أيضاً عن أن أنفة العرب هذه لم تمنع من وجود مصاهرات عديدة بين العرب والعجم كان من نتيجتها أن عدداً من مشاهير العرب في خُراسان ينتمون إلى أمهات أعجميات.

ومن الافتراءات المضللة ما ورد بأن الموالي في خُراسان وبلاد ما وراء النهر قد أنشبوا عدداً من الثورات تمرداً على الحكم العربي الإسلامي في عهد بني أمية بما معناه أن الإيمان لم يدخل في قلوب أولئك القوم، ومثال ذلك في ثورة الحارث بن سريج التميمي، لا يعني أنَّ هذه الثورة خاصة بهم، فصاحبها عربي وكما انضوى تحت لوائها أناس من الموالي فإنَّ أقواماً من العرب قد اشتركوا فيها، وكذلك الشأن فيما يعرف بثورة الموالي خلال عهد الوالي أشرس السلمي فقد كانت عربية عجمية، أما ضعف إيمان أولئك القوم فمردود بكون منطقة خُراسان وبلاد ما وراء النهر أسرع الأقاليم الإسلامية المفتوحة تعرباً ومن أقواها تعمقاً في الدين حتى غدا أهلها مصادر يتلقى عنهم الناس في العراق والشام ومصر العلوم الشرعية. وهذا ما ينفي عنهم ذلك.

٤. المشاركة بالدعوة العباسية: أن الدعوة العباسية قد نمت بين ظهراني العرب، وأنَّ دعوى أنَّ الموالي ثاروا على الحكم الأموي بتبنيهم الدعوة العباسية دعوى متهافتة رددها كثير من المؤلفين، ووردت في مصنفات عدة يباهي بعض أصحابها بأنها تعتمد على المنهجية العلمية والموضوعية في البحث وهي أبعد ما تكون عن ذلك، إذ كيف تكون موضوعية وهي تصطدم بالأدلة والوقائع التاريخية وبعد بيان أن الحنق والضيق اللذين قيل أنهما يحيطان بحياة الموالي ودفعاهم إلى الثورة إنما ضُخم أمرهما كتضخيم أمر العصبية القبلية نفاذاً إلى القول بأن الموالي رفضوا الظلم العربي المطبق المزعوم فأقاموا دولة بني العباس بمظهر فارسي على أنقاض الدولة الأموية ذات المظهر العربي مع تناسي وتجاهل الدور الرئيس الكبير للقبائل العربية في قيام الدولة العباسية، ذلك الدور الذي تحملته القبائل العربية بشقية الفكري والعسكري فقام بالنشاط

الفكري زعيم النقباء سليمان بن كثير حتى نمت الدعوة في خُراسان وترعرعت يسانده في ذلك النقباء العرب وقام بالنشاط العسكري قواد عرب ساروا بالجيوش لهدم الدولة الأموية وفي مقدمة هؤلاء قحطبة بن شبيب وابنه الحسن.

وهكذا فإن كثيراً من الأحكام التعميمية التي أخذت على أنها مسلمات في تاريخ العرب في خُراسان كموضوع العصبية، ودور العرب والموالي في الحوادث السياسية تحتاج إلى إعادة النظر للوصول إلى تنقية تاريخ تلك الفترة مما علق به من شوائب ومما ألصق به من الافتراءات التي تناولها كثير من أصحاب المصنفات العلمية على أنها وقائع ثابتة لا تقبل الجدل.

ثالثاً: حياة القبائل العربية الاقتصادية والاجتماعية في خُراسان

دخل العرب المسلمون أرض خُراسان فأصبحت بلاداً إسلامية وجزءاً مهماً من ديار الخلافة وجناحاً شرقياً له وزنه السياسي والاقتصادي والثقافي، وانتمى الخراسانيون إلى الإسلام ثقافة وفكراً وإلى العرب ولاءً، فالخراساني معروف بالقبيلة التي يحالفها في ظل الإسلام وفي دائرته، ولا يعني هذا أنَ الخراساني أهمل انتماءه إلى أرضه أو بلدته فهو منسوب إليها موطناً كما هو منسوب إلى القبيلة العربية حلفاً فيقال: الهروي التميمي، والبَلْخي السلمي، والمروزي الشيباني وهكذا.

وفي المقابل فإن أبناء القبائل العربية قد عرفوا بخُراسان وشهروا في بلادهم التي أصبحوا ينسبون إليها بعد أن استوطنوها فيقال لهم: عرب خُراسان وجند خُراسان وبعوث خُراسان ومقاتلة خُراسان وأهل خُراسان وقبائل خُراسان وفلان الخراساني والنيسابوري والنسائي والسغدي والسمرقندي والبخاري ويُقال ذلك لمن سكن هذه البلاد ويُنسب إلى البلاد الأخرى من يسكنها من العرب.

١. الحياة الاقتصادية

لم يؤد نفور العرب في بداية أمرهم من مزاولة الأعمال إلى الترفع عن الاتصال بالأعاجم والاحتكاك بهم بل ومحاكاتهم في اللبس وحضور احتفالات الأعياد والمهرجانات التي يقيمونها، فلبس العرب سراويل الأعاجم وتفننوا في اختيارها واحتفلوا بالمهرجانات وعيد النيروز وقبلوا فيها الهدايا من العجم، وكان الولاة والأهالي في ذلك على حد سواء، واشتهر من بين الولاة أسد القسري الذي كان يحضر المهرجانات الأعجمية.

على أنهُ ومع ما يلاحظ من أنَّ عملية استيطان العرب في خُراسان قد بدأت منذ مطلع العصر الأموي إلاَّ أنَّ مزاولة العرب للأعمال المختلفة قد بدأت ضعيفة، ولعل السبب في ذلك يكمن في أنَّ دَفْع أفواج من العرب إلى خُراسان قد قُصد به تثبيت الأمن بالدرجة الأولى، إذ أنَّ كراهة العرب للتجمير تدفع بالمدن والبلدان إلى التمرد والانتقاض على الحاميات التي يخلفها الفاتحون وراءهم، وقد لاقى المسلمون الأمرين من ذلك ولذا كان لابد من بقاء أعداد كبيرة من العرب في البلاد المفتوحة لحفظ البلاد من الفتن ومنع الثورات، وكان بعث العرب إلى خُراسان بعائلاتهم أسلوباً حكيماً قصد منه بث روح

الطمأنينة في نفوس المقاتلين، وتفرغهم للفتوح هناك إذ أن انشغالهم النفسي بزوجاتهم وأبنائهم في العراق يزعزع طمأنينتهم ويشل تفكيرهم.

وقد ورد في بعض وثائق الصلح أن بعض قادة الفتح طلبوا من أهل خُراسان أن يوسعوا للعرب في منازلهم غير أن الملاحظ أن العرب اختاروا القرى والأماكن النائية عن المدن مكاناً لسكناهم تمشياً مع أمزجتهم التي تميل إلى ذلك وهذا أبعدهم عن الاحتكاك المباشر بالتجار وأصحاب الصناعات والحرف اليدوية، ولعل العرب قد ألفوا تلك الحياة فكانوا يفضلون الأماكن القريبة من المدن ويختارونها مساكن لهم، حدث ذلك في العراق وحدث في خُراسان وكانت مفازة "أمل" بين "مرو الشاهجان" ونهر "جيحون" مركز استقرار ملائماً لطبيعة العرب فضلوه على المدن، وحين عبر العرب نهر جيحون شُهرت بلدة "بيكند" بكثرة المستقرين بها من العرب وما ذاك إلا لبعدها من المياه السَّبخة الكثيرة والزراعات وقربها من الصحراء. وقد قطع العرب النهر بالإبل واشتهرت "طُخارستان" ببعض العرب أصحاب الإبل والشَاة ونقلوا عن موسى بن خازم عنايته بهذه الأنعام المرتبطة تاريخياً بالعرب في جزيرتهم الصحراوية.

ويلاحظ أيضاً أن ارتباط العرب بالجندية وتبعيتهم لسجل العطاء كانت تحول بينهم وبين الالتصاق بالحرف والصناعات، فظلوا عسكراً مجندين في الحاميات، يقومون على شؤون الطرق في خارج المدن ومتأهبين للنفير العام.

ولم يكن العرب في معظمهم بحاجة إلى الكسب والارتزاق إذ أنَّ أرزاقهم تُعَين لهم من قبل الدولة ويشمل ذلك حتى أولادهم ونساءهم، وقد حرص الكثيرون على الالتحاق ببعوث خُراسان كل هذا لم يدفع بهم في بداية الأمر إلى الانخراط في الأعمال الحياتية الخُراسانية من زراعة وصناعة وتجارة لما سلف من أنهم مسجلون بديوان الجندية، وحبهم للحياة النائية عن المدن، ولعدم اطمئنان بعضهم إلى استمرار الإقامة الدائمة هناك لكثرة الغزوات والحروب والثورات وأيضاً تغير الولاة وما يتبع ذلك من تحول عدد من أنصارهم أو من قبائلهم إلى بلاد أخرى ومجيء وافدين جدد ومحاربين يختارهم الولاة بمعرفتهم رغبة في القرب منهم وطمعاً في المكاسب الدنيوية وهذا ينطبق على بعض الشعراء وذوي الحاجات.

أضف إلى ذلك: لم يتح للعربي الاحتكاك الذي يمكنه من العمل مع أهل خُراسان في الزراعة والتجارة في بداية الأمر إذ أنَّ أهل البلاد الأصليين لم يسمحوا بمشاطرة الفاتحين لهم بمنازلهم كما أنَّ أراضيهم كانت عزيزة عليهم إلى أبعد الحدود فلم يكن من السهولة أن تؤول إلى العرب، وهذا ينطبق على خُراسان بشكل أوضح إذ أن بلاد ما وراء النهر قد شهدت تحولاً جذرياً في عملية الاستيطان فنزل العرب في وسط "بخارى" و "سمرقند" ودفع قتيبة الناس بعائلاتهم إلى بلاد "الشاش" و "فرغانة" فالتصقوا بالأرض التصاقاً تاماً.

وفي ضوء ما تقدم فإنَّ القرن الهجري الأول لم يشهد انخراطاً تاماً للعرب في الحياة مع سكان البلاد المفتوحة من حيث مزاولة الأعمال الصناعية والتجارية والزراعية وفيما عدا ما قيل من أن بعض العرب ضجوا من إرهاق العمال لهم في جباية خراج أراضيهم الزراعية في عام ٧٧هـ فإنه لا توجد إشارة إلى تغلغل العرب في العمل الزراعي، وحتى هذه الحادثة لا تدل على

نشاط عربي زراعي لأن بُكير بن وشَّاح التميمي الذي تبناها أستغلها استغلالاً سياسياً ضد أميَّة بن عبد الله الأموي وطعن في سياسته المالية.

ويمكن القول أنَّ العرب قد أقبلوا على المشاركة في نشاطات سكان البلاد المختلفة في القرن الثاني من الهجرة، وبالذات النشاط الزراعي يدل على ذلك كثرة القرى المنسوبة للعرب مما يوحي بأنها كانت لهم يحرثونها ويزرعونها ويجرون الماء في القنوات إليها، فلبني خزاعة الأزديين اليمانيين قرى في أرض "مرو" ولتميم قرى في "طُخارستان" ولكندة اليمانية قرى ولقيس وبكر وتغلب قرى أخرى، بل قد تُنسب القرى إلى أشخاص من العرب فيقال: قرية فلان كما يقال قرية القبيلة الفلانية وذلك كقرية "كَتجانة" المنسوبة إلى نصر بن سيَّار.

وقد أصبحت عملية الاستيطان أكثر تنظيماً في مطلع القرن الثاني للهجرة حيث صار للعرب بيوت ومساكن في المدن تشرف الدولة على إقامتها وترتيبها، وذلك صنيع أسد القسري في منازل العرب بـ "البروقان" و "بَلْخ" عام ١٠٧ هـ. وهذا أدعى إلى أن ينصرف العرب إلى الحياة المعاشة، وينخرطوا في سبل معايشها الزراعية والتجارية والصناعية.

كما شهدت هذه الفترة اهتماماً بالإقطاعيات والأملاك الزراعية نظير أرض "المرغاب" التي منحها الخليفة يزيد بن عبد الملك لهلال بن أَحوز المازني التميمي.

وقد رأى العرب في خُراسان من الخيرات ونتاج الأراضي الزراعية ما لم يكونوا يألفوه، فأَثَّرَ ذلك في أسلوب معيشتهم وزادتهم الأموال الكثيرة غنى ورفاهاً وكانت خُراسان مغرية للعرب للذهاب إليها حتى أنَّ المهلَب آثر أنْ يختارها على "سجستان" وهو قد خبر الناحيتين معاً.

وكانت أموال خُراسان تكفي حاجة ساكنيها وتزيد يستنتج ذلك من المكاتبات الدائرة بين الخليفة عمر بن عبد العزيز ووالية على خُراسان حيث أمر الخليفة بصرف الأموال على أصحاب الأعطيات فصرفها الوالي على أصحابها وقسم الزائد منها على باقي الناس فكفاهم، وعُرف آل المهلب بتوزيع الأموال على الناس إلى حد الإسراف وكان قتيبة لا يكاد يظفر بمال حتى يوزعة على المقاتلين معه، وأثر عن أمية بن عبد الله الإسراف في الخيلاء والمباهاة حتى كان يقول أن خُراسان لا تكفي لمطبخه، وأفرط بُكير بن وشَّاح وجنده التميميون في اختيار الملابس البالغة الزينة، المتعددة الألوان.

وكان العرب يحصلون على ما يريدون من تجار خُراسان وبلاد ما وراء النهر مع تأجيل السداد إلى ما بعد الغزوات، فعل ذلك بُكير بن وشَّاح حينما كلفه أمية بن عبد الله بغزو بلاد ما وراء النهر فلما صرفه عن الغزو سدد ما للتجار عنه وعن بعض أعوانه، وسدد أمية عن الآخرين بعد مقتل بكير، وكانوا قد استدانوا بأموال كثيرة وهذا يقف بنا على نوع من العلاقة بين العرب والتجار من أهل البلاد الأصليين على أن حركة التجارة كانت نشطة في أيام الغزوات، وعلى نزوع العرب إلى الإكثار من شراء عدة الحرب وما إليها من لباس وأطعمة ولاشك أن مغانم الحرب الكثيرة كانت مما يُشجع على ذلك فقد وجد العرب في "بيكند" بعد الفتح من آنية الذهب والفضة ما لم يصيبوا مثله وغنموا في "البحيرة" أموالاً أعجزت المحصين لكثرتها وأجاز نصر بن سيار لأحد عماله بأن يحمل معه إلى الشام هو و آل بيته ما بدا لهم فحمل بعضهم ألف ألف وأكثر

من هذا القدر، وأعدَ ذات مرّة ضروباً من التحف النفيسة والهدايا الثمينة، كما أمر بصنع تماثيل الظباء ورؤوس السباع والآياييل وكتب إليه الوليد بن يزيد كتاباً يستهديه أباريق من ذهب وفضة وأن يصطحب معه البزاة والبزازين.

٢. الحياة الاجتماعية"

وكان من الطبيعي أن يتعلم أهل خُراسان لغة العرب الفاتحين لغة القرآن وأن يعلموها أولادهم لأنها لازمة في أمور الدين والدراسات الشرعية، وقطع أهل خُراسان شوطاً كبيراً في علوم اللغة وآدابها واحتك العرب باللغتين الفارسية والتركية فتعلمها بعضهم وروي أن أحد بني باهلة المحاصرين لـ (كمْرجَة) كان يتكلم التركية وأثر عن أحد بني تميم أنه كان يعرف الفارسية فكان ترجماناً بين الفرس وأحد الموالي من الأتراك الذين يتكلمون العربية وكان الكرماني الأزدي يتكلم الفارسية.

وقد انصرف بعض العرب إلى اللهو واللذات في خُراسان واشتهر أبو الهندي الشاعر التميمي بالعكوف على الشراب. وكان في "ترمذ" أيام موسى بن خازم حانات خمر يأوي إليها بعض العرب وحين تورط بعض جنود قتيبة في الخمر قتل بعضهم حفاظاً على جنده وكذا فعل وكيع بن حسان بن أبي سود التميمي وقريباً من ذلك صنع عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة وأثر عن بعض العرب ولعهم بالصيد في الأراضي الخُراسانية وبرز في ذلك الشَّمردل بن شريك التميمي.

رابعاً: موقف القبائل العربية من الفتن المذهبية

ضمّت المنطقة أجناساً متعددة وقوميات متباينة فكان فيها العرب والفرس والأتراك كما كان فيها عدد من الديانات والعقائد المختلفة، فبالإضافة إلى الإسلام كان هناك مجوسية ويهودية ونصرانية، ومن الطبيعي أن تكون هذه البيئة من أنسب الأماكن لظهور الفتن المذهبية ونموها بل وقد يأوي أصحاب المذاهب إلى خُراسان لتباين قومياتها ووجود عدد من الأديان بها ولبعدها أيضا عن دار الخلافة الإسلامية، ولم يكن اعتباطاً أن يختار العباسيون خُراسان موطناً لبث دعوتهم في عام ١٠٠هـ وذلك حين بعث محمد بن علي بن عبد الله بن عباس محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيّان العطار ليبثوا الدعوة هناك.

وقد أثمرت الدعوة لآل العباس في خُراسان حتى أن داعيتهم زياداً أبا محمد مولى همدان أقام بـ "مرو" وذلك في عام ١٠٩هـ وكان أبرز المناصرين له يحيى بن عقيل الخزاعي من قبيلة الأزد الكهلانية اليمانية.

١. فتنة خداش:

وفيما بين عام ١٠٠ هـ وابتداء أمر أبي مسلم الخُراساني في عام ١٢٩هـ ظهر نشاط للدعاة أشده في عام ١٠٧ و ١٠٩هـ أثناء ولاية أسد بن عبد الله القسري الأولى، وفي عام ١١٨هـ أثناء ولاية أسد الثانية وفي هذا العام الأخير انحرف الداعية العباسي في خُراسان عما مضى عليه أسلافه من الدعوة للرضا من آل البيت واسم هذا الداعية عمّار بن يزيد بعثه بكير بن ماهان والياً على شيعة بني العباس لكنه ما لبث أن غيرَّ اسمه وتسمى بخدّاش وغيرَّ ما دعا الناس إليه وأظهر دين "الخرَّمية" وبلغ من جرأته في ذلك أن أخبر الناس بأن ما يدعو إليه أنما هو بأمر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

لم تلق دعوة خدَّاش قبولاً من القبائل العربية في خُراسان وأوصى أسد القسري إلى يحي بن نعيم الشيباني البكري الوائلي بأن يقتله فقتله بـ "آمل" وصلبه.

وبعد موت خدَّاش لم تجد بدعته من يتبناها أو ينحو منحاها بل هي قد ماتت بموته كما أن الدعوة العباسية قد اتجهت من بعده إلى وجهتها الصحيحة، وقد جاءت فتنة خدَّاش أبّان حركة الحارث بن سريج التميمي الذي يقول بالأرجاء لكن الارجاء لم يعد آنذاك مذهباً مستقلاً متميزاً بآراء تحدد معالمه وتبين جوانبه، كما أن ابن سريج لا يعد من أعلام الإرجاء البارزين بالرغم من قوله بالإرجاء وإشعاله لثورة خطيرة امتدت فترة طويلة من الزمن زعزعت فيها الأمن وهددته مراراً كثيرة.

٢. <u>فتنة الإرجاء:</u>

المرجئة: وهي إحدى الفرق الإسلامية التي نشأت في وسط شاع فيه الكلام في مرتكب الكبيرة أهو مؤمن أم غير مؤمن، والمرجئة حزب سياسي، لا يريد أن يغمس يده في الفتن، ولا يريق دماء حزب، ولا يحكمون بتخطئة جماعة وتصويب أخرى، ولم يريدوا أن يسفكوا دماء فريق من المسلمين، ويحقنوا دماء فريق آخر، وكانت نواة هذه الطائفة بين الصحابة الذين امتنعوا عن الدخول في الفتن التي وقعت في آخر عهد عثمان ﷺ وانتهت بمقتله، ثم امتدت عقابها إلى عهد الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ، فقد امتنعوا عن إبداء رأيهم في الحروب التي وقعت بينه وبين معاوية، وبهذا أرجأوا الحكم في أي من الطائفتين أحق، وفوضوا أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى، وعلى أية حال فقد انتشر مذهب الإرجاء بخراسان في عهد بني أمية وكثر أتباعه فيها وكانوا فرقتين هما المرجئة الخالصة ومرجئة الجبرية، ومن مرجئة الجبرية بخراسان الحارث بن سريج وتبدو أخباره في الشطر الأول من حياته مجهولة، فهو يدعو إلى تحكيم كتاب الله وسنه نبيه في الحياة وإقامة العدل ويستعين مع ذلك بالمشركين على قتال المسلمين، ومن الواضح أنَّ حركة ابن سريج قد اختلط فيها الفكر بالسياسة واكتنفها ما يدخل في حركات الفتن من الطموح وحب الظهور الشخصي والرغبة في الانتقام والمطامع.

ومن غريب ما قيل في أمر المرجئة أنها لعبت دوراً هاماً في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين حين تطور النزاع بين الأحزاب والطوائف وحلت مشكلة اجتماعية جديدة في الدولة الأموية وهي موقف العرب من المسلمين الجدد فقد ذهب المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وقريباً مما تقدم ورد أيضاً "أن بني أمية لم يضطهدوا المرجئة كما اضطهدوا المعتزلة والخوارج والشيعة بل هم قد استعملوا من عرف بالإرجاء كما فعل يزيد بن المهلب بثابت قطنة حين ولاه عملاً من أعمال الثغور وقد وجد بنو أمية في تعاليم المرجئة ما يساعدهم على فرض سلطانهم على المسلمين لأن الحساب مرجأ إلى الآخرة فمن الأفضل التسليم بواقع الخلافة كما فرضه الأمويون بغض النظر عن شرعيته أو عدمها على أن يترك لله أمر الثواب والعقاب".

والقول بأن المرجئة انتصرت لغير العرب من سوء المعاملة التي يلقونها قول ينقصه الدليل ويحتاج إلى ما يدعمه من الحوادث الثابتة وإذا كان هذا القول يرمز إلى وقفة ثابت قطنه وهو مرجئ مع من فرضت عليهم الجزية أثناء أمرة أشرس السلمي بعد

أن أسلموا فإن ثابتاً لم يكن وحدة في هذه الوقفة إذ كان معه عدد من العرب والموالي، وكما أن ما حدث من أشرس بشأن الجزية إنما كان بتدبير من أحد الموالي، ثم أن ثابت قطنة لم يقف هذا الموقف بدافع مذهب الإرجاء بل هو وقفه من أجل أنه التزم لمن أسلم بأن يرفع عنه الخراج فلما لم يفِ أشرس بما التزم به عبَّر ثابت عن سخطه مع مجموعة من أصحابه لم يؤثر عنهم أنهم من أصحاب الإرجاء، وحتى ثابت نفسه لم يعرف عنه اهتمام واضح بهذا المذهب أو قول فصل وكل ما ورد في سيرته هو أنَّ له أبياتاً من الشعر قال فيها بالإرجاء.

على أن مفهوم الإرجاء قد تطور واختلط بالجبرية والقدرية وإن كان هذا التطور لم يؤثر على الحارث بن سريج التميمي في خُراسان بل أثر عن بعض أتباعه كالجهم بن صفوان الذي خرج من الإرجاء إلى القول بالجبرية الخالصة حتى أصبح صاحب مذهب بالغ التطرف نسب إليه وعرف باسم مذهب "الجهمية".

وقد عُرف الحارث في بداية أمره مقاتلاً صنديداً في جيش المسلمين برز في صفوف بني تميم أيام حصار "كمرجة" في أرض "سمرقند" عام ١١٠هـ، وفي عام ١١٦هـ خلع وأقبل من "النخد" حتى وصل إلى "الفارياب" وقدم أمامه بشر بن جرموز الضَّبي التميمي فوجه عاصم الهلالي (والي خُرسان) وفد ليتراجع وقد أخفق هذا الوفد في مسعاه بسبب تعنت الحارث فتناول الموفدون الحارث في "مرو" وذكروا سيرته وغدره، أما هو فقد استولى على "بَلْخ" وطرد عاملها نصر بن سيار وولىَّ أحد ولد عبد الله بن خازم على "بَلْخ"، وفيما بين أرض "الجوزجان" و "بَلْخ" كان الحارث يدعو إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضا ومعه ستون ألفاً من الفرسان، وقد وصف الطبري أصحاب الحارث بأنهم (فرسان الأزد وتميم)، وبالمقابل كان مع عاصم الهلالي عدد من وجوه القبائل وقد اجتاح الحارث "الجوزجان" و "الفارياب" و "مرو الروذ". وفي أرض "مرو" كانت المواجهة بين الطرفين وانهزم الحارث وأصحابه.

عزل هشام بن عبد الملك عاصماً عن خراسان وعيَّن عليها أسداً بن عبد الله القسري، فلمَّا بلغ عاصم خبر إقبال أسد خاف من معاقبة أسد له، واختار مصالحة الحارث بن سريج وكتب بينه وبين الحارث كتاباً على أن ينزل أيَّ كور يشاء في خراسان، وعلى أن يكتبا إلى هشام بن عبد الملك يدعوانه إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإن أبى اجتمعا عليه، فختم بعض رؤوس الأخماس على الكتاب، لكن يحيى بن الحُضَين زعيم قبيلة ربيعة رفض أن يَخْتم على هذا الكتاب لأن فيه خلعاً للخليفة وبذلك تقوض هذا الاتفاق، وتجددت الحرب بين عاصم والحارث في مرو قبل وصول أسد إلى خراسان، فهزم الحارث وقُتِلَ وأُسِرَ ثمانون رجلاً من أصحابه أكثرهم من قبيلة تميم (قبيلة الحارث) وقتلهم عاصم، ويذكر هنا أن أسد بن عبد الله لما قدم خراسان حبس عاصماً وأغرمه مائة ألف درهم، ومنذ ذلك الحين انضم الحارث إلى الأتراك ضد العرب.

وأدعّى أسد القسري هزيمة الحارث الذي تحصن بـ "مرو الرَّوذ" حيث الغالبية التميمية وتتابعت المعارك في "مرو الروذ" و "آمل" حتى اضطر الحارث إلى النزوح إلى "ترمذ" في وقت اضطربت فيه أمور سمرقند وظهر نشاط دعاة آل العباس مما دعا بأسد إلى حشد عدد من المقاتلة من أبناء القبائل وتعيين رؤساء جدد عليهم، وقد بعث أسد الجيوش إلى "ترمذ" و"آمل" و "سمرقند" كما قبض على نقباء الدعوة العباسية بتحريض من أحد الباهليين فتكلم اليمانيون من النقباء ودافعوا عن أنفسهم

متذرعين بحسد الباهليين وحقدهم عليهم لشدتهم على قتيبة فعفى أسد عن اليمانيين ثم الربعيين وعذّب المضريين وهم من تميم وكاد أن يفتك بهم.

وكانت الضربة الموجعة لأصحاب الحارث علي يد الكرماني اليماني عام ١١٩هـ وذلك في "بَلْخ" وفي قلعة "التبوشكان" بـ "طُخارستان" وكان مع الكرماني رؤساء اليمانية من أمثال سالم بن منصور البجلي وصالح بن القعقاع الأزدي. غير أن أسداً القسري وقواده وغالبيتهم من أهل اليمن قد لقوا عنتاً من الحارث حيث اعتصم بـ "طُخارستان" واستعان بالثائرين من الترك ببلاد ما وراء النهر وكانت حرباً مميتة جمع أسد فيها القبائل على راياتها والدهاقين ومع الحارث "خاقان" و"جيغوية الطخاري" وملك السغد وقد التقوا "ببَلْخ" و"مرو الروذ" ثم ببلاد ما وراء النهر وبـ "سمرقند" بالذات.

وفي عام ١٢١هـ سار نصر بن سيّار (وهو والي خُراسان يومئذ) إلى بلاد ما وراء النهر وكان الحارث بن سريج يومئذ بأرض الترك فأقبل معهم وعلى الترك كورصول أمّا نصر فكان معه عشرون ألفاً من غير العرب وهم أهل "بخارى" و "سمرقند" و "كش" و "أشروسنة" والعرب على أخماسهم، وقد قتل "كورصول" وهزمت الترك.

وفي عام ١٢٧هـ طمع نصر بن سيار في مناصحة الحارث بن سريج ومصالحته وذلك بسبب الفتنة بين نصر والكرماني وخشيته من قدوم الحارث عليه في أصحابه فأرسل إليه مقاتل بن حيان النبطي ثم أخذ له أماناً من الخليفة يزيد بن الوليد ورد عليه أمواله، فقدم الحارث وأقام بـ "مرو الرَّوذ" بذل نصر كُلَّ ما في وسعه لإرضاء الحارث وإبعاده عن فكرة المعارضة، وأسكنه قصر بُخارا خُداة وأجرى عليه خمسين درهماً كلَّ يوم، وأطلق سراح من كان مسجوناً من أهله، وردّ له كل ما صودر منه، وعرض عليه نصر أن يوليه ويعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل وأرسل إلى نصر أني لست من الدنيا واللذات في شئ أنما أسألك كتاب الله والعمل بالسنة وأن تستعمل أهل الخير فإن فعلت ساعدتك على عدوك.

وخرج الحارث سنة ١٢٨هـ من "مرو" وعسكر خارجها بحجة أن الخليفة الجديد مروان بن محمد لا يجيز الأمان الذي أعطاه له يزيد وطلب من نصر أن يجعل الأمر شورى ويعزل العمال بما فيهم سَلْم بن أحوز التميمي صاحب الشرطة واتفق الرأي على أن يحكم الطرفان بينهما أناساً من أهل العلم والدراية فاختار نصر مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان واختار الحارث المغيرة بن شُعبة الجهضمي ومعاذ بن جَبَلة. ولم يتوصل هؤلاء إلى حل يرضي الطرفين وأخفق كل من جهم بن صفوان ومقاتل بن حيان حينما حكَّما بعد ذلك بين نصر والحارث، ورفض الحارث عرض نصر أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف. وكان الحارث يزعم أنه صاحب الرايات السود وقد أمر كاتبه الجهم بن صفوان أن يقرأ سيرته في الأسواق والمساجد فاجتمع عليه خلق كثير قاتل بهم نصراً ثم انضم إلى الكرماني واليمن وربيعة وأخيراً فارقهم واعتزل حربهم مع نصر ولما خرج نصر من "مرو" دخل الحارث في صراع مع الكرماني وأتباعه وقاتل حتى قتل مع نفر من أصحابه غالبيتهم من تميم وكان ذلك في عام ١٢٨هـ.

وبهذا أخفقت حركة الحارث، فقتل دون أن يحقق أهدافه، ومع ذلك فإن حركته شاركت في إثارة الفوضى التي سادت خراسان في تلك الحقبة، كما أنه شغل جيوش الخلافة سنوات عدة وأنهكها، فهو في أول ظهوره قاد الترك لمحاربة العرب، ولما

أخفق ظل لاجئاً عند الترك سنين كثيرة، فلما ظهر من جديد فرق كلمة العرب، وكان نصر مصيباً حين رماه بالشؤم، فهو بحق رجل مشؤوم لأنه شارك بشكل غير ذكي في تمهيد الطريق للعباسيين، فتمزيقه لوحدة العرب، وإنهاكه لقوتهم واستهلاكه طاقاتهم ومعاداته للأمويين ومناهضته لعاملهم على خراسان، كله ساعد في نمو الدعوة العباسية واتساع قاعدتها، فقد استغل أبو مسلم الخراساني هذا الظرف السياسي، وأظهر الدعوة العباسية بعد أشهر معدودة من مقتل الحارث.

٣. <u>حركات الطالبيين</u>

وفيما عدا حركة الحارث وظهور دعاة آل العباس شهدت خُراسان حركتين للطالبيين:

الحركة الأولى ليحي بن زيد ين علي بن الحسين: وهي امتداد لحركة أبيه الذي ثار بالكوفة وقتل بها سنة ١٢٢هـ في خلافة هشام بن عبد الملك وولاية يوسف بن عمر على العراق، وكان من أمر يحيى أن سار إلى خُراسان بعد مقتل أبيه ونزل "بَلْخ" إلى أن سرحه نصر بن سيار منها بعد أن أمنه ووصله وحذره الفتنة. ولما لم يكمل يحيى مسيره أرسل إليه نصر سَلْم بن أحوزْ المازني التميمي على رأس جيش فأدركه بـ "الجوزجان" وقاتله حتى قتل في عام ١٢٥هـ دون أن يكون له أتباع كثيرون من القبائل العربية في خُراسان بل لقد قيل أنه كان في سبعين رجلاً قدم أكثرهم معه من العراق.

أما الحركة الثانية فهي لعبدالله بن معاوية بن حبيب بن جعفر بن أبي طالب: الذي خرج وكثر أتباعه في عام ١٢٩هـ ولحق بـ "هراة" بعد أن جاء بأمور مبتدعة في الدين مالأ فيها أهل الإلحاد فيما يُروى وقد انتهى به الأمر إلى القتل على يد مالك بن الهيثم الخزاعي والي "هراة" من قبل أبي مسلم الخُراساني دون أن يحدث أثراً كبيراً بعد مجيئه إلى خُراسان ودون أن يكون للقبائل العربية موقف معين من حركته المذهبية.

وبصفة عامة فإنه من الصعب القول بأن قبيلة ما أو مجموعة من القبائل قد اتخذت أو تبنت مذهباً فكرياً بشكل جماعي بل أن مجموعة من الأفراد قد ينضوون تحت فتنة مذهبية مع عدم وجود رابطة قبلية توحد بينهم مع ملاحظة أن المذاهب الفكرية لم تكن قد اتضحت صورتها في هذا الوقت وإن وجدت فهي لخدمة أغراض سياسية.